# المستشرقة الألمانية
# والعطار النيسابوري

رواية

Author: **Ali Badr**

اسم المؤلف: **علي بدر**

Title: **German Orientalist and Attar of Nishapuri**

عنوان الكتاب: **المستشرقة الألمانية والعطار النيسابوري**

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: **دار المدى**

First Edition: **2025**

الطبعة الأولى: **2025**

**جميع الحقوق محفوظة: دار المدى**

**Copyright © Al–Mada**

**للإعلام والثقافة والفنون**

*Al-mada for media, culture and arts*

بغـداد: حـي أبـو نـؤاس - محلـة 102 - شـارع 13 - بنايـة 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ + 964 (0) 780 808 0800 ☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 790 1919 290

بـيروت: بشـامون - شـارع المـدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 706 15017 ☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 175 2616

دمشـق: شـارع كرجيـة حـداد- متفـرع مـن شـارع 29 أيـار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2275 ☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

لايجـوز نـشر أي جـزء من هـذا الكتـاب أو تخزين أيـة مادة بطريقة الاسـترجاع، أو نقلـه، على أي نحـو، أو بأية طريقة سـواء كانـت إلكترونيـة أو ميكانيكيـة، أو بالتصويـر، أو بالتسـجيل أو خـلاف ذلـك، إلا بموافقة كتابيـة من الناشر مقدّماً.

هذا الكتاب مسـؤولية الكاتـب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

علي بدر

# المستشرقة الألمانية والعطار النيسابوري

**Und siehe, die Stimme genügte,**

**auch wenn der Gott nicht erschien.**

**وكأن الصوت وحده كان كافياً،**

**حتى وإن لم يظهر الإله.**

**" راينر ماريا ريلكه،**

**«سونيتات إلى أورفيوس»**

**تو خود حجابی از میان برخیز**

**تا دیده شود آنچه نادیده‌ست**

**أنتَ الحجاب، فتنحَّ جانباً**

**كي يرى ما لا يرى**

**" فريد الدين العطار،**

**من «منطق الطير»**

# حين كان الحبر أقوى[1]

في عام مولدي، كانت أوروبا تمسح أنقاض حرب، وتتهيأ لأخرى. لم أكن أعرف أن حياتي التي بدأت في إرفورت، تحت سماء رمادية، ستنتهي في تعقب أنوارٍ لم تصل بعد إلى الغرب. ولدت عام 1922، حين كان اسم ألمانيا لا ينطق دون أن يسبقه تنهيدة أو يتبعه تهديد. لكنني، منذ طفولتي، شعرت أن هذا البلد، على اتساعه، لا يكفيني. كنت أبحث عن لغةٍ لا تخترع القتل، بل تعلي من شأن الهمس، وتكفّر عن ضوضاء المدافع.

في برلين، بدأت دراسة العربية والفارسية والتركية، وكان هدير الحرب يقترب. الجامعة كانت حقل ألغام أيديولوجي، لكنني كنت أبحث عن شيء آخر: عن الحكمة التي تغنّى والكلمات التي تسكن القلوب. نلت الدكتوراه وأنا في التاسعة عشرة، فيما أوروبـا تشتعل من جديد، وبدأت عملي كمترجمة في وزارة الخارجية. كنت أترجم خطابات مملة وأنكب ليلاً على قراءة الشعراء الصوفيين المسلمين.

سقطت برلين، فاعتقلني الحلفاء وقادوني إلى سجن إداري، وهناك،

1- حين كنت أعدّ أرشيف الراحلة أنماري شمّل، وقعت بين أوراقها غير المنشورة على هذا النص القصير، مكتوباً بخطّ اليد، وبتاريخ لم يحدَّد، لكنه يرجّح أن يكون من نهايات حياتها، في لحظة صفاء داخلي وعودة تأملية إلى البداية. كان مطوياً بين دفاتر المحاضرات، كأنه لا ينتظر النشر، إنه أقرب إلى العتبة الباطنية التي تقف عندها المعرفة حين تصير سيرةً روحية لا أكاديمية، وحين يصبح الاكتشاف لا في المخطوطة، بل في الذات التي تطارد أثرها. نقرأه اليوم لا بصفته وثيقة، بل بصفته أثراً، كما كانت تلك الورقة المترجمة التي عثرت عليها أنماري في معسكر الاعتقال: علامة غامضة على وجود نسخة أعمق من الحياة، لم تكتب بعد.

في أحد المخازن، بين كتب منقولة على عجل من مكتبات الدولة، وجدت ورقة قديمة، مترجمة من الفارسية، بخط اليد. من كتاب «منطق الطير للعطار النيسابوري» نسخة أخرى لا يعرفها الاستشراق الألماني. لم أكن أبحث عن شيء، لكنها وجدتني. شعرت في تلك اللحظة أن ما أضاعته الحرب من خرائط، قد تعيده ورقة ضائعة. لم يعد «العطار» عندي شاعراً، بل طريقاً. حين خرجت من المعسكر، كنت أحمل سؤالاً لا وثيقة: هل يمكن أن يختبئ المعنى وتكون المعرفة أسيرة مثلنا؟ ومنذ ذلك اليوم، بدأت رحلتي نحو الشرق، لا بوصفي مستشرقة بل كمن يطارد ظل كتاب لم يعثر عليه بعد.

في باكستان، التقيت بروح محمد إقبال، لا بشخصه. وفي قونية، شعرت أن الرومي لم يمت، بل تنكّر في نفسٍ حي. رأيت في الصوفيين الأتراك صمتاً مشبعاً بالسياسة. وفي طهران، قبل الثورة بعامين، وقفت أمام جدارية شاهقة للشاه، وأدركت أن البذخ حين يكتمل، ينذر بانهيارٍ داخلي. وحين سقطت بغداد، بكيت. لا على مدينة كنت أحبها فقط، بل على العالم الذي كنت أؤمن بإمكانية ترميمه بالحبر، لا بالدبابات. كنت أؤمن أن كل كلمة تكتب في العزلة تغيّر ما لا تغيّره الجيوش. لهذا، لم أكن فقط باحثةً في التصوف، بل شاهدة على ما يمكن أن يفعله الحبر، حين يكون أوفى من الدم، وأعمق من الأرشيف. الورقة التي وجدتها في المعسكر لم تكن وثيقة فقط. كانت بشارة.

**أنماري شمل**

## أنماري شمل تاريخ حياة

1922: ولدت أنماري شمل في مدينة إرفورت، ألمانيا – بعد أربع سنوات فقط من نهاية الحرب العالمية الأولى، وفي ظل جمهورية فايمار المتداعية.

1939: بدأت دراسة الدراسات الإسلامية والفارسية والعربية في جامعة برلين –في السنة نفسها التي اندلعت فيها الحرب العالمية الثانية بغزو ألمانيا لبولندا. وفي العام 1941: أنهت الدكتوراه في سن التاسعة عشرة، في أوج الحرب. فعملت مترجمة في وزارة الخارجية الألمانية في ظل الحرب والرايخ الثالث. وعند سقوط برلين– سجنت سجناً إدارياً حتى ثبت ألا علاقة لها مع الحزب النازي، فخرجت من السجن لتشهد إعادة تشكيل الهوية الألمانية بالكامل تحت ظل الانقسام.

1952: ألفت الإسلام: مدخلٌ عام – تزامناً مع صعود عبد الناصر في مصر وثورة الضباط الأحرار (1952) التي ألهمت تحولات الشرق.

1965: رحلت إلى باكستان، بعد اغتيال إقبال بـ17 عاماً، لتدرس أثره الصوفي – السياسي. كانت باكستان تعيش أزمة هوية بين العسكر والإسلام.

1976: زارت إيران – في عامي ما قبل الثورة الخمينية، في طهران المخنوقة بين البذخ الشاهنشاهي والغليان الديني والسياسي.

1989: سقوط جدار برلين. لحظة فاصلة – كانت ترى فيها سقوط «شكل» من العداء لا «جوهره»، وبقيت تكتب عن إمكانية لقاء الشرق بالغرب.

1995: نشرت سيرتها الذاتية روحي امرأة – في عالم بدأ يتشكل فيه خطاب «صدام الحضارات»، وكانت هي تكتب ضد هذا الصدام في جوهرها الفكري.

2001: هجمات 11 سبتمبر. لم تعش كثيراً بعد ذلك، لكنها صرحت في إحدى المقابلات أن ما يجري هو «انهيار في اللغة قبل أن يكون صراعاً في الأجساد».

2003: توفيت في بون، بعد حرب العراق بأسابيع. كانت قد عارضت الحرب ثقافياً، واعتبرتها خيانة للمعنى الإنساني الذي عملت عليه طوال عمرها.

# باب السر وباب الأسر

## عن الحب الصوفي:

«العشق هو النار التي تحول القلب إلى رماد،
بعد أن يولد النور منه».

• ***أنـماري شمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام***

## صفحة ممزقة من الشرق يناير 1946

كان الشتاء في معتقل «رافينسبروك» شاحباً، ليس من البرد، بل من الصمت.

ذلك النوع من الصمت الذي يكتسب وزنه من التكرار، من مرور الأيام التي لا تتغير. لا أسمع فيه شيئاً إلا وقع خطوات الحراس على الثلج المتيبس، أو شهقة مكتومة في الزنزانة المجاورة، أو أنين امرأة تشد الوسادة على فمها كي لا تبكي. كنت شابة ألمانية نحيلة، عملت، في سنواتي الأولى، مترجمة مبتدئة في وزارة الخارجية أثناء حكم الرايخ الثالث. أترجم الملفات والرسائل لقسم الشؤون الشرقية. بعد سقوط برلين اعتقلني الحلفاء ووضعوني في هذا المعسكر الذي يقال إنه «إعادة تأهيل»، بينما هو في الحقيقة غرفة انتظار بلا زمن.

لم يبلغ جسدي بعد سن الاكتمال، لكن الخوف استوطن مفاصلي مبكراً، وعلمني أن أحول نفسي إلى ظل. بيد أن عقلي رغم كل شيء سار في طريقٍ مغاير، كأنه ينجو وحده، بعيداً عن الجدران الخرسانية والأسلاك الشائكة. وفي يوم وفي إحدى زوايا المخزن القديم، وبين كومة من الأوراق المحترقة والكتب المبللة التي تركها جنود من وحدات الترجمة العسكرية، وجدت شيئاً غريباً: صفحة منفردة، محفوظة داخل كيس بلاستيكي صغير، مكتوبة بخط يد دقيق، باللغة الألمانية. صفحة مترجمة من كتاب منطق الطير. فاستعنت بماريا، الراهبة البولندية التي كانت تحفظ مزامير داود وتهمس بها قبل النوم، قالت إنها لأحد السجناء. من براغ. اسمه... كارل زيلر. يتقن العربية والفارسية. استخدموه هنا لترجمة بعض الملفات ثم أعادوه إلى بوخنفالد.

عدت إلى زنزانتي، جلست عند الحائط، وأخرجت الورقة من الكيس.

قرأت. ثم قرأت مجدداً. كانت صفحة كاملة من كتاب «منطق الطير»، لكن بنبرة مختلفة، أعمق، كأنها كتبت في الظلام، من داخل لحظة كشف. الهدهد يتحدث إلى الطير، لكنه لا يسرد حكاية، بل يهدم المفاهيم:

«من ظن أنه يطير، فقد سقط. ومن ظن أنه يسير، قد عثر. ومن ظن أن الله يدرك، فقد ضل. اتركوا الظن، وسيروا بلا خيال. الطريق الذي ترونه، لا يقود إلى شيء. الطريق الذي ينساكم، هو وحده الطريق».

كان لدي نسختان من «منطق الطير»: واحدة بالفارسية النسخة المعتمدة من مكتبة سيد أحمد الطلقاني، ونسخة فرنسية من ترجمة دوتاسي، وهي نسخة مهترئة حصلت عليها من مكتبة صغيرة تبيع الكتب الشرقية في برلين. قلبت الصفحات، بحثت عن أي أثر لهذا المقطع. لم أجده. لا في النسخة الفارسية ولا الفرنسية. لا يشبه أي فصل من فصول الوديان السبعة، ولا أي حوار من حوارات الطير والهدهد.

في أسفل الصفحة، هامش صغير بخط رصاص، كتب فيه المترجم –ذلك الذي اختفى– جملة قصيرة رجتني:

*«الترجمة مأخوذة من نسخة نادرة، محفوظة في نيسابور، منقولة عن الأصل الذي خطه فريد الدين العطار بيده. أعيرت لي لعام واحد حين كنت في خراسان، في بيت السيد باقر الكتبي، ورثتها عائلته بعد الثورة الدستورية في إيران. النسخة لا تطابق ما طبع لا حقاً، وقد تحتوي أبواباً حذفت عمداً أو نسيت. هذه الصفحة واحدة منها. كتبتها هنا لئلا تفقد».*

وقد وقعها باسم «كارل زيلر»، والمكان «معسكر بوخنفالد»، في العام «1942». لم أصدق عيني. هذه صفحة غير موجودة في أي نسخة معروفة. إذا صح ما كتبه، فنحن أمام نص أصلي مجهول. أمام طبعة مخطوطة لم يرها أحد منذ قرون. صفحة دونها العطار نفسه، ثم سقطت من النسخ، أو أسقطت عمداً. لم أعد أشك. لقد عثرت على شيء لا يقدر بثمن.

منذ تلك الليلة، لم أنم. لم أعد أرى الجدران، بل رأيت نيسابور. رأيت شجرة مشمش في فناء مكتبة متهالكة، ويداً ترتجف فوق الرق. شعرت أن ما يجري ليس صدفة، أن هذه الصفحة وصلت إلي لسبب، وأن الرجل الذي

ترجمها، كارل زيلر، لم يكن مجرد سجين، بل رسول يحمل رسالة ستتوه مني إن لم أتبعها.

عندئذ عرفت. ما عشته في هذا المعتقل لم يكن إلا مقدمة. إنه الباب الأول في حياتي. الصفحة الأولى من كتابي الحقيقي. ومنذ ذلك الحين، بدأت الرحلة... نحو الأصل، نحو المخطوطة، نحو العطار.

## نوم خفيف في الجحيم

لم يكن ثمة ضوء وأنا أقرأ مقاطع من منطق الطير، بل ثمة رماد يتراكم في الهواء، في الحلق، في الذكرى. أغلقنا أعيننا لا لننام، بل لنتظاهر بالنسيان. كنت أستلقي على السرير المعدني، فراشي قاسٍ، مفروش ببطانية تشبه القبر، أحاول أن أجعل جسدي يختفي، أن أتلاشى إلى درجة لا يميزني فيها الحارس من ظلي، ولا تميزني الرائحة من الجدار. لكن النوم لم يأت.

ما جاء، بدلاً عنه، صوت غريب، موسيقى أعرفها، مكونة من مقاطع لا تفهم إلا بصعوبة، شيء بين الحاء والعين والراء، شيء يشبه حفيف الطير حين يدون اعترافاته فوق شجرة محترقة.

## كتاب لم يترجم لي، بل أنا من ترجمت له

الثلج يسقط على معصمي، لا من النافذة، بل من الورق. كنت مستلقية لكن في داخلي كنت في مكان آخر: مكتبة كبيرة، جدرانها من خشبٍ معتم، وكتبها موضوعة في فوضى متروكة عمداً، كأن قارئاً هارباً عبث بها قبل أن يعتقل. وفي المنتصف، طاولة. وعلى الطاولة، كتاب.

لم تكن في الغرفة شموع، ولا ضوء، ومع ذلك، كان الغلاف يلمع. جلدته خشنة، سمراء تميل إلى اللون العتيق الذي يسبق التحلل. الكتاب رباعيات جلال الدين الرومي على الغلاف مكتوب بلغة ألمانية قروسطية:

Übersetzt von Joseph von Hammer – Purgstall

ترجمة جوزيف هامر بورغشتال.

رفعت يدي، لم أفكر، فقط امتدت كما تمتد اليد إلى الحبيب الغائب.

وحين لامست الورق، شعرت بحرارة. الكتاب كان دافئاً. كما لو أن شخصاً ما قرأه للتو. قلبت أوراقه فوجدته يستشهد بمقطع لعطار نيسابور كان الخط دقيقاً، ممتداً، ينطق بنبرةٍ لا تشبه الألمانية التي تعلمتها في جامعة برلين. قرأتها رغم أنني لا أعرف أنني أعرفها:

«Wenn die Vögel zusammenkommen, sagt der Wiedehopf: Kein Flug gelingt, ohne dass das Herz verbrennt»

(حين اجتمعت الطيور، قال الهدهد: لا طيران يفلح دون أن يحترق القلب.)

حتى قرأت ذلك السطر، في الهامش رقم 17 من الطبعة النمساوية لشرح المثنوي: «قال مولانا إن الطيران لا يفلح إلا باحتراق القلب، وهذا يذكرنا بقول العطار في نص نادر: «الطريق لا يكون إلا لمن غاب عن الطريق»». ثم تعليق بخط فون هامر بوغشتال: «ورد هذا البيت في نسخة نيسابورية من كتاب الطير، غير مشمولة في المخطوطات المتداولة اليوم».

تجمد دمي. ها هو الدليل. النسخة التي ترجم عنها كارل زيلر لم تكن خيالاً، بل كانت معروفة. لمسها فون هامر بورغشتال من قبل، نقل منها، وربما أشار إليها فقط كمن يلمح إلى وجود شيء. عدت إلى الصفحة المترجمة. الجملة ذاتها، كانت في صلب المعنى: «الطريق لا يرى، بل يغيب؛ لا يسلك، بل ينسى؛ من عرف الطريق، خرج منه». الآن باتت الحلقات تتصل: نسخة نيسابور. آل باقر الكتبي. كارل زيلر. جوزف فون هامر بورغشتال. لكن السؤال الذي بدأ يتوهج في ذهني ليس عن حقيقة وجود هذه النسخة، إنما لماذا تم إسقاطها من كل النسخ المحققة؟ لماذا لم يعتمدها المحققون؟ لماذا لم تطبع؟ لماذا لم تذكرها الطبعات الفارسية الحديثة، ولا الترجمات الغربية الكبرى؟ هل لأنها غيرت نبرة العطار؟ أم لأنها قدمت قراءة باطنية أبعد مما يسمح به التصنيف؟ أم لأنها تقول أكثر مما ينبغي؟

أدركت، لحظة قراءتي لهذا البيت، أن ما أحمله ليس فقط أثراً منسياً، بل قطعة مخفية. أن ثمة طبعة صوفية أصلية، غابت من الكتب، وظلت متوارية في الظلال، تنتظر قارئاً واحداً يعود ليوقظها. مددت يدي إلى الورقة، نظرت

إلى الحرف الأول فيها –ذلك الحرف الكبير الملتف كابتسامة سرية– وقلت بصوت خافت: «ربما لم يسقط النص، بل أسقط». ومن تلك اللحظة، بدأت أسأل نفسي سؤالاً جديداً:

من أسقط مخطوطة العطار؟ ولماذا؟

شعرت بانقباضٍ في صدري. العبارة لم تكن مجازاً. كانت أمراً. كل ما حولي بدأ يتراجع: الجدران، الأسرة، وجوه النساء النائمات في الأسر، كلها تلاشت كما يتلاشى الضباب إذا دخلته الشمس من جهة القلب. لم أعد سجينة في رافنسبروك، بل باحثة في برلين القديمة، أو ربما في إسطنبول القرن التاسع عشر، أبحث عن المترجم الغريب الذي اختار أن ينقل الشرق عبر النار. سألت نفسي، في الحلم: عظمة أخرى من أعمال بورغشتال؟ ولماذا كان صوته يشبه صوتي؟ هل كان يترجم العطار، أم كان يترجم نفسه؟ أم أن كل من ترجم العطار، صار هو أيضاً أحد طيوره؟

## صحو تحت الثلج، واسم يحترق في اللسان

استيقظت فجأة، لا على صرخة، ولا على صفارة المعسكر الصباحية، بل على نفسي. كان الضوء خافتاً، رمادياً ككل شيء في رافنسبروك. سقف الزنزانة المرتفع يقطر برداً، والأجساد من حولي متكومة كأكوام حطب قديم، يعلوها الشخير، والحلم، واليأس. جلست ببطء، شعري ملتصق بجبهتي، ويدي ترتجف. كان الحلم لا يزال فوق جلدي، لا في داخلي فقط، بل في الهواء، كأنني خرجت منه كما يخرج المرء من كتاب، لكنه لم يخرج مني.

نظرت إلى راحتي. لا شيء. لكني أقسم أنني أمسكت به: كتاب قديم، ترجم فيه جوزف فون هامر بورغشتال صوتاً لم أسمعه من قبل، لكنني أعرفه. العطار. الاسم لم يزل يطن في رأسي، كما تطن الكلمة التي لم تترجم بعد. نطقت به، هامسة، كأنني أتلو دعاءً محرماً في معبد مغلق: «عطار..».

وشعرت بشيءٍ في فمي، طعم جديد، لا يشبه طعم الجوع، بل طعم ترابٍ مقدس، كأنني نطقت الاسم ونقلت إلى جهة أخرى من الألم، إلى عتبة الحريق، لا حريق المعسكر، بل حريق أعمق، داخلي، لا ينطفئ بالماء

بل بالمعنى. مددت يدي تحت الوسادة، قطعة قماش ملفوفة على بعضها، تفوح منها رائحة العفن ــ وأخرجت الصفحة التي أسميتها صفحة زيلر. حرفها الأول كان واضحاً: حرف كبير، ملتف، يبتسم كابتسامة رجل يعرف سرك، ولا يريد أن يبوح. قلت في نفسي:

«حين أخرج من هنا -إن خرجت طبعاً- لن أبحث عن العدل، ولا عن الوطن، ولا عن معنى العالم. سأبحث عن هذه المخطوطة». ثم أعدت الورقة إلى مكانها، استلقيت، دفنت رأسي بين كتفي، ورددت كمن يمارس طقساً سرياً: «عطار... بورغشتال... الطير... الحريق... الهدهد..». لم أعد أنماري فقط إنما قارئة. قارئة اختيرت لا لتشرح النص، بل لتحترق به.

## غرفة التحقيق، حيث كان الهدهد يهمس لي

اقتادوني من الزنزانة دون مقدمات. كانت أقدام الحارس تطرق الأرض بإيقاع ممل، لكن قلبي كان ساكناً، تماماً كما تكون المياه ساكنة حين تغمرها الكثافة، لا لأن كل شيء بخير، بل لأن كل شيء قد فهم. منذ الحلم، لم أعد كما كنت.

كنت داخل شيءٍ يشبه النص. نص لا يقرأ، بل يعاش، وحروفي فيه ليست ألمانية، بل نداءات غامضة بلغة لا تدرس في الجامعة، بل تفتح من الداخل. دخلت غرفة التحقيق. الجدران عارية.

ضوء أصفر منبعث من مصباح وحيد معلق فوق رأسي. الكرسي خشبي، منخفض قليلاً عن مستوى الطاولة. وهم يحبون ذلك. يحبون أن تنظر إليهم من تحت. دخل الضابط بعد دقيقتين. وجهه شاحب، عيناه زرقاوان ببرودٍ يشبه الماء إذا طهي على نار الخوف.

فتح الملف. لم ينظر إلي. قال دون مقدمة:

«ما الذي تكتبينه في الليل؟»

لم أجب. ليس لأنني أرفض، بل لأن السؤال لم يكن يعني شيئاً. كنت أكتب، نعم. لكن ما أكتبه ليس ضدهم، بل ضد الجهل. والجهل، كما علمني العطار في الحلم، لا يهزم بالصراخ، بل بالحيرة. رفع عينه نحوي. قال:

«لست مثل الأخريات. لا تبكين. لا تصرخين. لماذا؟»

نظرت إليه. وبدلاً من أن أراه، رأيت الهدهد. نعم، الهدهد، طائراً كان يقف فوق كتف العطار، في الصفحة الخامسة عشرة من كتاب منطق الطير. قال لي في الحلم: «إن من عرف الطريق، لا يخاف الطريق».

قلت: «لأني تعبت من اللغة. أنتم تتكلمون كثيراً».

رفع حاجبه. لم يكن يتوقع جواباً. كان يريد انكساراً. لكن ما وجد أمامه هو فتاة، وجهها نحيل، معصماها أزرقان من شدة البرد، وعيناها –رغم كل شيء– تلمعان. ليس ببريق الحياة. بل ببريق المعنى. قال، كأنما يسأل نفسه: «هل أنت مؤمنة بالفكر النازي؟» أجبته، «لا» أما بحكمة العطار، فكما تقال كلمات العارف: «أنا في الطريق».

لم يكتب شيئاً. لم يغضب. لكنني شعرت أنه خسر شيئاً صغيراً في تلك اللحظة، شيئاً كان يعتقد أنه يملكه: سلطته. خرجت من الغرفة. ومعي جملة واحدة تحترق في صدري: «قوة الروح لا تحتاج إلى منطق، بل إلى عبور».

## مكتبة بلا سقف، وامرأة تبحث عن أثر طائر

بعد أشهر من الانتظار، والإهانة، والبرد، والصمت الذي لم يهزم حتى بالصفارات، خرجت من المعتقل. كان ذلك في ربيع رمادي من عام1946 . العالم مشطور إلى نصفين، نصف يبحث عن ناجين، ونصف يدفن موتاه. وبرلين، مدينتي، لم تعد مدينة، بل متحفاً للأنقاض، مجرد جثة فكرية، حشيت رئتاها بالغبار والتاريخ والخوف. لكني خرجت ومعي شيء واحد: صفحة كتبت في روحي كندبةٍ غير قابلة للالتئام: الصفحة المفقودة من كتاب منطق الطير لفريد الدين العطار.

كنت أذكر الحلم بأكمله، لا كذكرى، بل كعلامة محفورة، تشبه السطر الأخير في كتابٍ لا يعاد فتحه إلا مرة واحدة في الحياة. وبقيت راسخة تلك العبارة التي لم تكن ألمانية، ولا فارسية، ولا لغة محددة، بل رنيناً داخلياً، خفيفاً، لكنه لا يزول: «العشق لا يحتاج إلى منطق، بل إلى عبور». في أول يومٍ لي بعد الحرية، لم أذهب إلى الكنيسة. ولا إلى أمي. ذهبت إلى مكتبة

الدولة القديمة في ميونيخ، رغم أنها كانت بلا سقف، تغمرها رائحة الخشب المحروق والمطر. كان عامل النظافة يجمع بقايا المخطوطات كمن يجمع أجنحة مكسورة. سألته:

«هل بقي شيء من الترجمات الشرقية؟» قال وهو يضحك دون أن ينظر إلي: «هل بقي شيء منا؟»

دخلت الغرفة الخلفية. كانت الرطوبة تأكل الورق، وكان الغبار يمحو العناوين. لكنني كنت أبحث عن شيء لا عنوان له. فتشت الخزانات المهشمة، الكتب المتناثرة، المجلدات الممزقة. وفي زاوية بعيدة، وجدت الفرع الذي أبحث فيه:

«Die Vogelversammlung des Attar von Nischapur»

ثم هنالك نسخةٌ فرنسية كاملة من منطق الطير نقلها غارسان دوتاسي، وتلك الإنجليزية المختصرة التي صاغها نيكلسون، ومعي صفحةٌ واحدة فقط، بالألمانية، تلك التي ترجمها كارل زيلر. كنت أعرف أن النص في يدي ليس امتداداً لكتاب، بل ندبة سقطت من جسده، وعلي أن أرى انعكاسها في جميع المرايا الممكنة. لم تكن هناك ترجمة ألمانية كاملة بعد. كل ما فعله المستشرقون الألمان أنهم التقطوا شذراتٍ من العطار وعلقوها على حواف قصائد جلال الدين الرومي، أو دسوها في حواشي كتبٍ لا تقصد العطار أصلاً. هكذا تعرفت أول مرة إلى صوت الهدهد: في حاشيةٍ هامشية وضعها جوزف فون هامر – بورغشتال وهو يشرح بيتاً من المثنوي: اقتطع بيتاً للعطار، مزجه بمجازٍ لجلال الدين، ثم أطلق عليه وصف شاعرٍ خراساني غامض.

بعد هامر –بورغشتال جاء فريدريش روكرت في القرن التاسع عشر، فوضع للقراء الألمان «عيناتٍ» من العطار، أبياتاً قصيرة، مغسولة بالإيقاع الجرماني الرشيق، لكنها منزوعةٌ من سياقها الطيري. وروكرت– على جماله – أبقى العطار طيفاً يلوح من بعيد.

ثم حل زمن هلموت ريتر، وكتابه الجبار بحر الروح (Das Meer der Seele): هناك، على امتداد صفحاتٍ كثيفة، ترجم مقاطع كاملة من منطق

الطير، وشرحها كمن يغوص تحت طبقات السرداب الصوفي بحثاً عن ماءٍ يلمع في الظلام. لكن حتى ريتر نفسه لم يملك مخطوطة العطار الأصلية، ولا ذكر شيئاً عن تلك الصفحة التي أحملها الآن.

أمسكت بالورقة بخفّة، كأنها جناح قد ينكسر. السطر الأول فيها –«الطريق الذي ينساكم هو وحده الطريق»– بدا مألوفاً وغريباً في آن. فتحت دفاتري، قلّبت كل ما أعرفه من ترجمات ألمانية لـ«منطق الطير»: في هوامش هامر –بورغشتال؟ وجدت إشارة عابرة، ولكن مبتورة. في قصائد روكرت؟ لعلها لمّحت، لكنها لم تنطق. في كتاب هلموت ريتر «بحر الروح»؟ مرّت العبارة كظل، بلا تأويل. هنا بدأ يتشكّل السؤال داخلي: هل عرفها المستشرقون، ثم تجاهلوها؟ أم أنهم، ببساطة، لم ينتبهوا إلى معناها؟ كانت الورقة موجودة، الأثر كان هناك، في الهوامش، في الترجمة المنسية، في البيت الذي لم ينقل. لكن أحداً لم يقف أمامه طويلاً، كأنها صفحة خافتة لم تكن تناسب صورة العطار التي أرادها الغرب: شاعراً قابلاً للشرح، لا للتيه. أنا، وحدي، شعرت أن هذه العبارة لم تكن ضالة. بل كانت مقصية– لأن معناها لا يقرأ، بل يعاش. ولأنها، باختصار، تنتمي إلى نسخة أعمق من الكتاب، نسخة لا تترجم بل تكشف.

وهكذا انقلب هدف الرحلة: لم أعد أبحث عن كتاب العطار، بل عن نسخة العطار الأصلية. عن الفراغ الذي خلفه المترجمون حين اكتفوا بالشذرات وتركوا هذا الوادي السري يتيماً. الصفحة تقول إن العطار كان بين أيديهم –بين أيدي كارل زيلر منذ عام 1942 على الأقل– لكنه أفلت وتلاشى مثل طيرٍ عبر حديقة النار.

من هذه اللحظة، انفتح سؤالٌ جديد: إذا كانت الصفحة قد عبرتْ أيدي هامر –بورغشتال وروكرت وريتر من قبل– ولو على هيئة أصداء خفية – فلم حذفت من كل النسخ اللاحقة؟ هل خشوا لغتها التي تحرض القلب على الاحتراق؟ أم خافوا من فتنة الوادي الثامن، الوادي الذي لم يذكره أحد لأنه يسقط السارد قبل أن يسقط القارئ؟

شيء في داخلي كان يهمس: النسخة التي جاءت منها هذه الورقة،

تهدم الصورة التي أرادها الغرب للعطار. لقد رسموه بهيئةٍ مفهومة، مشذبة، تصلح لقاعة محاضراتٍ في بون أو برلين: شاعراً رمزياً، لا نبياً طائراً. أما هذه الورقة، ففيها عطارٌ آخر: غامض، مفكّك، لا يقبل الترجمة ولا التأطير. عطار لا ينتمي إلى «التصوف المألوف»، بل إلى نسخة باطنية من الإسلام خاف منها المترجمون، أو لم يرغبوا في كشفها.

ربما لهذا السبب تركت الورقة، أو أهملت، أو –وهو ما لا أستبعده– أتلفت بقصد. لأنها لا تناسب سردية «الشرق القابل للشرح»، بل تفتح باباً على شرقٍ لا يدرك إلا بالفقد والتيه.

رفعت الصفحة إلى الضوء الرمادي، وهمست: «علي أن أجد المخطوطة كاملة وليس فقط هذه الصفحة». ومن هناك بدأ بحثي في مخازن المخطوطات الشرقية، وكان سؤالي أين أجد هذه النسخة. يقيناً أنها في ألمانيا ولكن كيف العثور عليها؟

## بين العشق والتحقيق؟

بدأت أكتب.

ليس من أجل النشر، ولا من أجل مكانتي بين المستشرقين، بل من أجل أن أثبت لنفسي أن ما رأيته لم يكن حلماً، وأن نسخة العطار الأصلية ليست نسيج وهمٍ داخلي، بل نسخة حقيقية، جرح وقع في قلب التاريخ وترك أثره على الصفحة، كما يترك الجمر شكله على الخشب. كتبت بخطٍ مرتجف على ورقٍ رمادي قديم: «العطار لا يترجم. العطار يستحضر».

وبدأت أراسل الأساتذة، واحداً تلو الآخر. أرسلت إلى أستاذي القديم في جامعة برلين ــ ذلك الذي علمني قواعد الاشتقاق السامي، ولم يكن يجرؤ على قول كلمة «تصوف» بصوتٍ عالٍ. أرسلت إلى «إرنست كونيغ»، الذي ترجم ذات مرة رسائل إخوان الصفا إلى الألمانية وأخفى عمله لعقد كامل. أرسلت حتى إلى أرملة المستشرق يوليوس غولدتسيهر الذي ظل حتى موته يقرأ في سره رسالة الطير وكأنه يخشى أن يسمعه الرب.

لكن معظم الردود كانت باردة، مؤطرة، أكاديمية، كأنني أسألهم عن وزن

بيتٍ في شعر غوته أو شيللر، لا عن رجلٍ علمني أن اللغة ليست وظيفة بل مصير. قال أحدهم: «العطار شاعر جميل، لكنه غامض، رمزي، يصعب تعريبه فكرياً في المنهج الألماني».

لم أكن أكتب أطروحة في التصوف، بل في الشك. أكتبها لا لأثبت فكرة، بل لأهدم يقيناً: أن ما نقرأه اليوم باسم منطق الطير ليس هو الكتاب الذي خطه فريد الدين العطار بيده، بل نسخة مهذبة، مروضة، تم تطبيعها عبر العصور كي تناسب الذوق والسلطة والعقلانية الأكاديمية أو السياسية. ما أكتبه في برلين الآن هو بحثٌ عن الأصل، الأصل المفقود، المخفي، المحترق، الذي لم يتبق منه سوى صفحة واحدة مترجمة إلى الألمانية، ترجمها كارل زيلر. منذ تلك اللحظة، لم أعد قادرة على النظر إلى النسخ المعروفة كما كنت. لم تعد طبعة أوكسفورد تقنعني، ولا نسخة باريس. لم تعد ترجمة نيكلسون أكثر من حيلة لغوية. ما وجدته في تلك الصفحة الوحيدة كان نصاً يسبق التأويل، نصاً يخرب كل المعاجم، ويقف ضد الترجمة نفسها. وإذا كانت هذه الصفحة من الأصل، فإن كل النسخ الأخرى يجب أن تراجع، أو تنسى.

أكتب الآن أطروحتي كمن يبحث في الرماد عن شرارة. أفتش في أرشيف المستشرقين: غولدتسيهر، كونيغ، بروكلمان، براون، ريتر... أقرأ حواشيهم كما يقرأ العهد القديم بحثاً عن نبوءة، وأتوقف عند كل جملة غامضة، كل ملاحظة لم تشرح. في هامشٍ مغمور من كتاب كونيغ عن «الفكر الرمزي في الشعر الفارسي»، وجدت هذه الجملة: «ثمة نسخة مشتعلة، تنقل سراً من يدٍ إلى يد، وقد تكون هي ما كتب العطار نفسه». هل كان يعنيها؟ هل رآها؟ هل اقترب منها ثم خاف أن يذكرها صراحة، لأن مجرد ذكرها قد يفجر يقين المؤسسة؟

المصيبة أن هذه النسخة اختفت من الذكر منذ عقود. لماذا؟ لا أحد يعرف مكانها. لا أحد يعرف من امتلكها. لكن وجودها حي، كالأشباح: لا تراه، لكنك تشعر بأن كل النصوص الأخرى تتحرك خائفة منه، كأنها تعرف أنها مجرد صدى. كل ما أملكه هو تلك الصفحة الواحدة. لكن الصفحة ليست وثيقة. إنها شاهد. وكل ما تبقى لي هو أن أكتب... لأستدعي الأصل من بين الفتات.

## أن تتهم بالحب في قاعة علمية

كانوا يجلسون في نصف دائرة، كأنهم ينتظرون محاكمة، لا أطروحة.

كأن ما جئت أقوله يجرم، لا يناقش. القاعة في جامعة بون، في الطابق العلوي الذي لم تندمل شقوقه بعد. الجدران مطلية كيفما اتفق، لكن الطاولات تلمع بعناية، والقهوة تسكب في فناجين رقيقة، كأنها تحاول أن تقنعنا بأن الحرب لم تمر من هنا قبل أشهر. كنت أصغر من في القاعة، امرأة شابة بنظرة معلقة بين ذعر البرد وظل الذكرى، لكن صوتي لم يرتعش. لم يكن يخرج من الحنجرة، بل من مكان آخر... من حفرة أعمق، حيث الكلمات لا تصاغ بل تستخرج.

وقفت وقلت ببطء: «نسخة منطق الطير المختفية. فريد الدين العطار. دراسة في أثر الأصل على خريطة النسخ».

سمعت همهمة، ورأيت ابتسامة جانبية تجر معها عبارة لم تخففها التهذيب: «Mystik und Gefühl. Schon wieder». (تصوف وعاطفة. من جديد؟)

لكنني لم أرد. فتحت دفاتري، وبدأت الجدال. ذكرت نسخ منطق الطير المعروفة: نسخة المتحف البريطاني، تعود للقرن السابع الهجري. مخطوطة نسخية بلا زينة تقريباً، ذات اختلافات لغوية طفيفة لكنها مثيرة للانتباه. ثم نسخة طوب قابي سراي، من العهد التيموري أو الصفوي. زخرف، منمنمات، ذروة جمالية، لكنها مروضة لغوياً. ثم نسخة المكتبة الوطنية في طهران، معيارية، تستخدم في الطبعات الحديثة، فيها جهد واضح لإعادة توحيد النص، أي: لإخضاعه. ثم نسخة بودليان في أكسفورد: تحوي مقدمة نثرية غير موجودة في غيرها، استخدمت في تحقيقات نيكلسون وريتر. ثم نسخة مكتبة نور عثمانية في إسطنبول، تحمل هوامش تفسيرية، كتب على بعضها بخط لاحق: «للاستعمال في دروس الصوفية». ثم توقفت.

نظرت إليهم، وقلت بصوت خافت لكنه قاطع: «لكنني ضعت. ضعت مع العطار».

لم تكن جملةً منهجية، بل نداء. جملة تخرب كل ما سبقها، لكنها تكشف كل ما بعدها.

عندها بـدأوا يكتبون. التدوين لا يعني التصديق، لكنه يشير إلى اضطراب. كان الصمت طويلاً. ثم جاء الصوت الذي كنت أنتظره. كلاوس فون هيلدبرانت، خبير الفقه الإسلامي الكلاسيكي، لحية مهذبة وابتسامة جامدة، قال: «أطروحتك يا أنماري... مثيرة، لكنك رومانسية. تتعاملين مع المخطوطة كأنها رسائل غرام، لا وثيقة تراث».

نظرت إليه كما ينظر إلى مرآة لا تعكسك. ثم قلت: «بل هي كذلك. رسالة غرام. من العطار إلى من لا يخاف الضياع. وأنا، لم آت لأفهمه. أتيت لأحبه». ثم أغلقت الملف. لم أكن بحاجة إلى تصفيقهم، ولا إلى موافقتهم. كنت قد عبرت إلى جهة أخرى من النص. الجهة التي لا تشرح، بل تنكسر. في تلك الليلة، حين عدت إلى غرفتي، لم أفتح دفتر الملاحظات. بل فتحت منطق الطير. صفحة عشوائية. وقرأت: «إذا ضحكوا عليك لأنك أحببت، فابك لأجلهم. لم يذوقوا الحب بعد».

## لقاء غير متوقع

كان المساء بارداً، رمادياً، كأن بون نفسها اختارت أن تبتعد عن ضوء العالم. بعد المحاضرة، لم أذهب إلى السكن. بقيت في المكتبة الشرقية. طابقها العلوي لا تدخله الشمس، والمخطوطات مصفوفة كأرواح معزولة تنتظر من يوقظها. جلست إلى الطاولة الخشبية القريبة من النافذة المعتمة، فتحت دفتر الملاحظات، وكتبت: «المنهج يعجز أمام النار. لا تفكك العتمة، بل تحس».

سمعت صوت خطوات خلفي. لم ألتفت. ثم جاء الصوت، مبحوحاً، هشاً، لكنه يعرف تماماً ماذا يقول:

– «أنماري، هل تسمحين؟»

التفت، كان البروفيسور هانس شتاينر، العجوز الذي لا يتكلم إلا قليلاً، يدرس تاريخ المخطوطات الإسلامية، وكان زميلاً قديماً لكلاوس فون هيلدبرانت، لكنه يختلف عنه تماماً: لا يحب الضوء، ولا يثق بالتوثيق. جلس بهدوء إلى جانبي دون استئذان. فتح حقيبته الجلدية المهترئة، وأخرج ورقة صفراء. دفعها نحوي وقال:

– «أردت أن أريك هذا منذ زمن. لكنك لم تكوني جاهزة».

نظرت إلى الورقة. كانت ترجمة ألمانية قديمة لفقرة من منطق الطير. لا تحمل ختماً، ولا عنواناً، لكنها مكتوبة بخط آلة كاتبة قديمة. في أسفل الورقة، توقيع صغير: E. Zieler. Buchenwald, 1944.

شهقت دون صوت. قال شتاينر، كمن يفتح باباً أغلق لسنوات:

– «كان هناك رجل ، يدعى كارل زيلر. قبل الحرب، درس الفارسية في بودابست، وكتب أطروحة عن أثر المتصوفة في الشعر الإيراني. لم تنشر. حين نقل إلى معسكر بوخنفالد، كان يحمل في جيبه صفحة. ترجمة لجزء من نسخة يعتقد أنها الأصل... كتبها العطار بخطه. لا أحد يعرف كيف حصل عليها. لكن الترجمة بقيت معه».

نظرت إليه مذهولة. قلت:

– «لدي صفحة أخرى غير هذه الصفحة...وكيف وصلت إليك؟»

ابتسم بحزن: «أنا لم أعرف زيلر. لكن أستاذي، الدكتور فرانز لوتز، التقاه مرة في فيينا، عام 1938. قال إن الرجل كان يتحدث عن نسخة لا تشبه أي نسخة أخرى. وإنه حين قرأها، تغير. قال جملة لم أنسها: «زيلر لم يكن يترجم، كان يتطهر». قلت: «وأين هي النسخة؟ أين الأصل؟» هز رأسه ببطء، كمن يود لو يجيب: «ربما احترقت. ربما أخفيت. ربما طمست. ربما موجودة في إسطنبول».

– «لكن في الصفحة التي عندي يقول إنه عثر عليها في مكتبة آل باقري في طهران؟»

– «أظنها سرقت»

– «هكذا ببساطة؟» قلت له.

– «نعم وبيعت في إسطنبول. لكن ثمة عدد من الصفحات مترجمة من قبل زيلر».

«يعني كانت في ألمانيا»

«نسخة العطار مرت برحلة طويلة جاءت من نيسابور إلى ألمانيا في زمن

غوته، سرقت وعادت إلى طهران حيث اطلع عليها كارل زيلر هناك. ثم سرقت من طهران ووصلت إلى إسطنبول»

«هل أنت متاكد أنها في إسطنبول وليست في أوروبا؟».

«هذا ما سمعته».

قال قبل أن يغادر: «إذا أردت أن تكملي بحثك، ابحثي في إسطنبول لا تبحثي في أوروبا» ثم تركني وحدي، ومعي الصفحة. قرأت الفقرة: «قال الهدهد: الطريق ليس لمن يعرف، بل لمن يحترق. وإذا بلغ الطير عرشه، تذكر الريح لا الرسم». في تلك الليلة، فهمت أن القضية لم تكن قط في إثبات وجود النسخة، بل في استدعائها من حناجر الذين لم يصدقوا.

## بحث عن زيلر

في صباح اليوم التالي، لم أخرج من السكن. جلست إلى المكتب، وأعدت قراءة الصفحة خمس مرات. كانت الترجمة الألمانية التي تركها زيلر تشبه صلاة خرجت من بين الأسلاك الشائكة. لا تشبه أي شيء في نسخ منطق الطير التي قرأتها. لا زخارف بلاغية، لا رموز قابلة للتفكيك، فقط جمل تشبه الأحلام التي تستيقظ فيها مذعوراً لأنك فهمت.

في أسفل الورقة، كان التاريخ واضحاً: Buchenwald, Februar 1944. كتبت في دفتري: «إذا كان وجود الصفحة حقيقياً، فالنسخة موجودة. وإذا كانت موجودة، فإن كل ما نعرفه عن العطار، هش».

بدأت بمراسلة الأرشيف الألماني، ثم أرشيف بوخنفالد. أرفقت الاسم: Carl Zieler تاريخ تقريبي: 1943–1945 معلومات: معتقل، تتلمذ على يد المستشرق المجري غوستاف فون غرونه، يعتقد أنه ترجم بضع صفحات من منطق الطير عن نسخة بخط المؤلف. أرسلت الرسالة، وجلست أنتظر. في هذه الأثناء، بحثت في مكتبة برلين عن أي إشارة إلى زيلر. لا شيء. لا كتاب، لا ورقة، لا سطر. كأنه لم يكن موجوداً. ثم فجأة، وجدت إشارة واحدة.

في هامش كتاب صدر حديثاً عن الأسرى، كتبه مارتن هيلشمان، وجدت جملة مقتضبة بين قوسين:

«زيلر، الذي ظل يردد في الزنزانة جملة من كتاب فارسي غريب: الطريق ليس لمن يعرف، بل لمن يحترق». كانت الجملة نفسها التي في الورقة. توقفت. شعرت بأن النص نفسه يتنفس من جديد، لكن لا في المخطوطات، بل في ذاكرة من مروا بنارها. في المساء، جاءني الرد من أرشيف بوخنفالد. كان موجزاً، لكن كافياً: «تم العثور على بطاقة باسم: Zieler, Carl (geb. 1913, Budapest) زيلر، كارل، ولد في العام 1913 بودابست.

Profession: Übersetzer المهنة (مترجم)

Ankunft: November 1943 – Verstorben: Unbekannt الوصول نوفمبر 1943 الوفاة غير معروفة.

ملاحظة داخلية: قرأت الرسالة أكثر من مرة. ثم أغلقتها. لم أفرح. لم أبك. فقط أعدت الجلوس إلى الصفحة، تلك التي ترجمها زيلر تحت سطوة الجوع واليأس والموت، وكتبت أسفلها: «هذه الصفحة لم تترجم لتفهم، بل لتخلد».

## قرار الرحلة إلى إسطنبول، المدينة التي تهمس من بين الشقوق

لم أكن واثقة. في البداية ظننتها خدعة. رسالة من مستشرق مغمور وأستاذ جامعي شاب يدعي أنه وجد شيئاً من أوراق كارل زيلر؟ بدا الأمر كواحدة من تلك الرسائل التي يرسلها أناس وحيدون، أو مهووسون بفكرة المعرفة السرية. لكنني لم أستطع تجاهل سطر واحد فيها: «النسخة الأصلية من منطق الطير بخط اليد... في إسطنبول». شيء ما ارتجّ في صدري. ليس لأنني صدقته، بل لأنني أردت أن أصدقه. ثم قررت أن أكتب إلى مستشرقين كثر بحثاً عن معرفة أين يمكن أن أبحث عن نسخة العطار المفقودة. أول من فكرت به كان أندرياس كروغر. رأيته آخر مرة في مؤتمر عن العرفان الفارسي في ليدن. كان يرتدي دوماً بدلة من الكتان الرمادي، حتى في عز الشتاء، ويعلق على معطفه دبوساً صغيراً على شكل طاووس. وجهه نحيل، كأنه منمنمة باردة، وعيناه غائرتان خلف نظارة معدنية دائرية. ترجم مقامات الطوسي، وكتب دراسة مريبة بعنوان «الغنوص الصوفي في بلاط